● المبحث الثاني : تعطيل الأكثرية لوسائل المعرفة

توطئة: سبقت الإشارة إلى أن المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية ذات الطابع الغيبي الصرف هو الوحي، وأن الوحي صادر عن عليم، ولا شك أن العليم غير العالم، لأن العليم يكون العلم ذاتا جوهرية فيه، أما العالم فيحصل العلم له بالاكتساب، ومن أجل ذلك تبين أن المصدر اليقيني الوحيد هو رسالة الله إلى خلقه، فإن عطل الناس الوسائل التي بها تحصل هذه المعرفة فقدوا كل سبيل إليها، وظلوا عندئذ يتخبطون في الجهالة التي لا مخرج منها بالوسائل المعتمدة في علم الظاهر أو علم الاستدلال الذي يقوم أساسا على آليات علم الظاهر كمقدمات تترتب عليها نتائج تابعة لها صوابا وخطأ. ونريد أن نجمل هنا في هذه التوطئة الوسائل الأساسية في التلقي المعرفي لكي ندخل من خلالها إلى التفاصيل لبيان تعطيل الأكثرية لتلك الوسائل .

ففي سورة الأعراف، وهي مكية يقول المولى عز وجل: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾

[الاعراف: ١٧٩]

الآية تبين أن الأكثرية من الجنسين – جنس الجن وجنس الإنس – مؤهلون للدخول لجهنم، وتكشف عن السبب الأساسي وهو الضلال، ولكنها تبين أن الضلال في حد ذاته نتيجة لأسباب أخرى جعلت تلك الأكثرية من الجنسين تهبط لمستوى الأنعام، وهذه العلل والأسباب إنما هي تعطيل وسائل التلقي المعرفي الثلاثة وهي :

١– البصر الذي هو وسيلة المنهج الحسي ﴿ **لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا** ﴾.

٢ ـ الآذان التي هي الوسيلة الأساسية لتلقي الخبر، أي آلة المنهج النقلي: و﴿ **لَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾.

٣ ـ القلوب التي هي وسيلة المنهج العقلي المركب من آلتي العقل والفؤاد، لأن الأول يمد المنهج بالفهم والثاني يطبعها بالموقف: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾.

ونحن هنا في هذا الموضع لا نريد أن نتحدث عنها من حيث هي آليات المنهج الإسلامي في البحث والاستيعاب والتلقي المعرفي كما تبين الآية: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وإنما نريد أن نتحدث في صميم فكرة البحث التي هي «الحقيقة الجوهرية في مشكلة الأكثرية والأقلية».

وهذا يستدعي الوقوف على موقف الأكثرية من العقل والسمع والبصر أي الحس والخبر والنظر كما يقول ابن تيمية رحمه الله.

ونبادر إلى القول قبل التحليل ـ بأنه من المنطقي أن لا نجد نصا يكشف عن تعطيل البصر وحده عند الأكثرية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه آلتهم الأساسية في التركيز على علم الظاهر كما بينا من قبل، علما أن القرآن يشير بالقسم إلى النوعين بقوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨] أي بما هو محسوس وما هو غيب وباطن، والآيات التي تستخدم نفي البصر عنهم تقصد البصيرة كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] أي لا يدركون فحوى ما تقوله وما تعلمهم إياه، وكون آليات التلقي مختلفة يستدعي الوقوف عند كل منها على حده، لاسيما وأن تعطيل وسيلة منها يؤدي إلى وعي مزيف في الغالب.

● **المطلب الأول: بيان أن الأكثرية تعطل العقل.**

الآيات التي تأتي بصيغة صريحة لتدل على أن الأكثرية لا تعقل ثلاثة هي:

١ ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٢ - ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

٣ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات : ٤]

والأولى منها مكية ، ولذلك كانت قد نفت عن الأكثرية عقل قضية البعث من خلال الدليل المادي المحسوس، وهو إحياء الأرض من بعد موتها وجدبها، وأقامت عليهم الدليل نفسه مما استدعى الأمر بالدعاء ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

أما الثانية والثالثة فمدنيتان تتعلقان بالتشريع والأخلاق، لذلك تعلق النفي المعرفي الدقيق بالشرع؛ إذ نفت آية سورة المائدة على الأكثرية عقل مسألة التحليل والتحريم، وأنها ليست قائمة على الاعتباط، بل هي قائمة على علم دقيق بجواهر الأشياء مما ييسر الحكم على العالم بالمقاصد الشرعية التي خفي معظمها على الناس، ومن ثم كان تحليلهم محض افتراء وكذب إذ لا يستند إلى أصول علمية تمكن من ذلك.

أما آية الحجرات فقد نفت على الأكثرية عقل أصول النظام الأخلاقي في المعاملات بما في ذلك مناداة الرسول ﷺ من وراء حجرات نومه دون مراعاة لأسلوب التعامل مع مقام الرسول ﷺ، ولذلك عقبت الآية بعد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات : ٥] .

وهكذا يتبين لنا أن انتفاء العقل على أكثرية الناس قد مس بالنصوص الصريحة ثلاثة مجالات أساسية هي المجال العقدي والمجال التشريعي والمجال الأخلاقي، وهي المجالات الأساسية في صياغة المجتمع الصالح.

وقبل أن نشرع في تحليل ذلك، ينبغي الإشارة إلى أن الآيات التي تتحدث عن دور العقل في المعرفة البشرية السامية، التي تحصل من مصادرها الثلاثة، وهي الحس والخبر والنظر، يعد دورا كبيرا لا يستهان به أبدا، كما يتجلى من قوله

تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] وقوله: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦] وقوله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

كما ينبغي الإشارة إلى أن العقل الذي يعتد به فعلا هو عقل العالم الحق، لأنه لا يعطله بأي صورة من الصور، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، قال ابن القيم «وقع في القرآن أمثال، وأن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون»[1]، وإذا كان العقل يعني في اللغة الإمساك والتدبر والفهم، فمعنى ذلك أن العلماء هم الذين يفترض فيهم أن يكونوا رباني السفينة، الذين يمسكون المعاني القرآنية يتدبرونها ويفهمونها ولا يدعونها تفلت منهم أو تصرف عن قلوبهم كي يفهموها حق الفهم ويعملوا على إفهامها غيرهم.

والإشارة الثالثة التي ينبغي الوقوف عليها هي أن الأكثرية يوم البعث ستعترف بأن سبب خسرانها وضياعها إنما قد حدث بسبب تعطيل العقل والسمع كما يتجلى من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]، ومعنى ذلك أنهم قد اعترفوا بدورهم في إضلال أنفسهم وتعريضها للخسران نتيجة تعطيل وسائل المعرفة الأساسية في مجال العقيدة والشريعة، ولذلك تعقب الآية عليهم بقول الله تعالى: ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١]، سحقا لهم لأنهم عموا عن الحق وعطلوا نعمة الله التي منحهم، وأنزلوا أنفسهم منزلة الأنعام التي لا تدرك من البعد الزماني سوى الحاضر، فغفلت عن المستقبل الذي يتضمن الإيمان بالبعث ومن ثم الاستعداد له: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤].

---

(١) الأمثال في القرآن: ١٧٣

والإشارة الرابعة التي ينبغي الوقوف عندها منهجيا هي بيان أن تعطيل الحواس من شأنه أن يؤثر على العقل فيعطله، لأن المنهج العقلي كما قلنا سابقا يستمد براهينه في الغالب من المقدمات الحسية أو الخبرية، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

نعود الآن بعد هذه الإشارات الأربعة الأساسية في مسألة العقل إلى الآيات التي نفت عن الأكثرية استخدام العقل في موضعه الصحيح في ثلاث مجالات حساسة جدا هي المجال العقدي والمجال التشريعي والمجال الأخلاقي لنفصل الحديث فيها بإذن الله.

(أ) **أما المجال العقدي** فإن الآية عرضته ضمن سورة العنكبوت وهي سورة مكية موضوعها الأساسي هو العقيدة، ومن ثم فقد جاءت الآية في السياق لتكشف عن طبع من الطبائع البشرية، تتمثل في أن الأغلبية لا تعقل المعاني العقدية مع إقامة الحجة والبرهان علي المستوى الحسي، فهذا ما تجليه الآية: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ووجه تخصيص سورة العنكبوت بهذه الآية مناسبتها لما تردد فيها وتكرر من حديث عن البعث في ما يزيد عن عشرة مواضع. قال الغرناطي: «وصف أكثرهم هنا بعدم العقل فوجه ذلك - والله أعلم - التعريف بإفراط قصورهم حتى استحقوا الوصف بصفات البهائم ومن لا يصح خطابه، وذلك أن العقل فضل الإنسان به امتيازه عن البهيمة، ولا يمكن العلم بشيء إلا بعد حصوله والاتصاف به، وهو مناط التكليف، وهو عند المتكلمين عبارة عن علوم ضرورية، وليس كل العلوم الضرورية، وهو مع هذا خصيصة جليلة إن عدمت لم يكن التكليف ولا وجود علم، وأضداد العلم العامة والخاصة أضداد للعقل، وهو من قولهم عقلت البعير إذا أمسكته بعقال وبه وضع خطاب المكلفين فإذا فقد لحق فاقدها بالبهائم»(١)

(١) ملاك التأويل ص ٢ / ٩٢٣

وهذا ما توضحه آية أخرى من سورة الفرقان وهي قوله تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤] فجاءت الآية هنا لتوضح عن طريق التشبيه أن الأغلبية ليست قادرة عن استعمال العقل بعد أن وضعته في إطار السنن النفسية الفاسدة التي ترغمه على التعطيل قال ابن القيم : « شبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرية أضل سبيلا من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل لهو أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه » [١].

ومن كل ذلك يتبين لنا أن الأكثرية عطلت العقل ومنعته من أداء وظيفته الأساسية وهي اختيار الأحسن، حتى صارت هذه الأكثرية أضل من الأنعام في اختيار العقيدة الصحيحة.

على أن الأمر لا يتوقف عند فشله في اختيار العقيدة، وإنما سيفشل كذلك في مجال آخر لا يصلح حاله إلا بصلاح حال العقيدة وهو الانقياد للشريعة.

(ب) مجال الشريعة: قلنا إن سورة المائدة وهي سورة مدنية مجالها الأساسي هو الشريعة جاء فيها قول الله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

---

(١) الإمثال في القرآن ٢٠٠ ـ ٢٠١

موضوع الآية كما ترى هو المؤاخذة على التدخل الإنساني في ما لا يعرف ولا علم له به، وهو التحليل والتحريم، إذ المعنى : « ما سمى الله ، ولا سن ذلك حكما، ولا تعبد به شرعا، بيد أنه قضى به علما، وأوجده بقدرته وإرادته خلقا، فإن الله خالق كل شيء من خير وشر ونفع وضر وطاعة ومعصية » (١) ، فالله لم يشرع كل هذه الافتراءات التي اختلقها الآباء وتعبد بها الأبناء من البحيرة التي يمنع درها فلا تحلب، والسائبة التي يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء، والوصيلة من الغنم التي ولدت سبعة أبطن آخرها أنثى مسبوقة بذكر، وقيل الشاة التي أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر، فكان ما ولدت بعد ذلك يكون للذكور دون الإناث إلا أن يموت شيء منها، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فيدعوه لآلهتهم (٢).

وعلى الجملة فإنهم كانوا يقولون إن هذه أمَرَ الله بتحريمها ويزعمون أنهم يفعلون ذلك طاعة لله، وطاعة الله إنما تعلم من رسله، وهذا رسول الله ﷺ يأتي بالقرآن ليبين لهم أن هذه فرية وكذبة.

ومن الواضح أن قوله تعالى ﴿ **وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ يكشف أن الأكثرية التي تفعل ذلك كانت من الكافرين الذين يكْذبون على الله في مجال التشريع. ولذلك قلنا قبلُ: إن الذين لا يعقلون مسائل العقيدة سوف لن يعقلوا بسهولة مسائل الشريعة ومقاصدها، لأنها تبع لها.

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ يبين أن أكثرية الخلق لم تستخدم العقل وإنما ألغته بالتركيز على تقليد الآباء والأجداد جهلا (٣).

ويدل ذلك على أن التشريع يتطلب علما بمجال التشريع ومقاصده، ولا يمكن أن يكون هناك تشريع يجهل صاحبه جوهر الموضوع الذي يشرع فيه

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٣٣٥

(٢) تفسير الجلالين: ص ١٦٤

(٣) نفسه

بالتحليل أو التحريم، وهذا ما يبين حكمة الله في منع حتى الرسول ﷺ من تحريم بعض الأشياء على نفسه كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم: ١] وكذلك قال بالنسبة للمؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧] فلكي تحرم لا بد أن تعقل أولا الموضوع الذي تريد تحريمه لتعرف علة ذلك، ومن هنا نفهم سر اعتماد الفقهاء «علة التحريم» في القياس عند إصدار الأحكام على الأشياء. ولهذا قال القرافي: «إن ترتيب الحكم على الوصف يقتضي علية ذلك الوصف لذلك الحكم»[١]، وقال: «الوصف الذي هو معتبر في الحكم إن أمكن انضباطه لا يعدل عنه إلى غيره كتعليل التحريم في الخمر بالسكر»[٢] وقال: «لا يترتب على المظنة حكم»[٣]وقال: «ترتيب الحكم على الوصف يدل على علية ذلك الوصف لذلك الحكم»[٤] وقال: «إن عدم العلة علة لعدم المعلول فعدم السكر علة لعدم التحريم»[٥].

وعلى هذا فإن الآية السابقة حين قالت﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ بينت بوضوح أن الذي يقدم على هذا الفعل هو مفتر وكذاب؛ لأنه يصدر أحكاما على الأشياء دون معرفة حقيقية لأوصافها ولا لعللها، ومن ثم فهم ﴿ لا يَعْقِلُونَ ﴾ لأن من يقدم على هذا الفعل بالتأكيد لا يستخدم عقله أبدا، وكيف يمكن أن يكون ذا عقل من يتسبب في الخسران المبين؟.

والمشكلة ليست في من يقدم على هذا الفعل فقط، ولكن في كون «الأكثرية» تفعل ذلك مما يؤدي إلى فساد المجتمع حين يعدل عن حكم الله إلى حكم البشر على الأشياء دون دراية بحقائقها، فالحكم خاص بالله لأنه «قضى به

---

(١) القرافي: الفروق ١/ ٢٢٧
(٢) نفسه ٢/ ١٦٥
(٣) نفسه ٢/ ١٦٦
(٤) نفسه ٣/ ٢٠٢
(٥) نفسه ٣/ ٢٧٤

علما » كما قال القرطبي[1]، ولكن الناس في الغالب يقضون به جهلا، بل يقضون به في غياب الوسائل الأساسية للمعرفة البشرية وعلى رأسها العقل.

(ج) **مجال الأخلاق**: إن تعطيل العقل في مجال الأخلاق لا يقل عن تعطيله في مجال العقيدة ومجال الشريعة، إذ نجد قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴾ [الحجرات: ٤] يكشف عن «انتفاء العقل على الأكثرية» ﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ في مجال الأخلاق، إذ تبين الآية أن بعض الناس كانوا لا يتمتعون بالمستوى الخلقي الذي ينبغي أن يتعاملوا به مع الرسول ﷺ حين يكون في بيته، فهم يفتقرون إلى الصبر في أدنى مستوياته، وهي الانتظار بعض الوقت حتى يخرج إليهم الرسول ليخاطبوه في شيء أو يستفتوه فيما يرغبون الاستفتاء فيه في المسجد أو في مكان يليق بمقام الأنبياء والمرسلين.

قال ابن كثير: «إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب فقال: ﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ ثم أرشدهم تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة »[2] والآية التي قبل هذه تبين الصورة الإيجابية للمستوى الخلقي الذي يتمتع به بعض الصحابة إذ قال قبل ذلك بشأن طريقتهم في خطاب الرسول ﷺ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ٣].

فآيات الحجرات هذه تقدم صورتين لنموذجين من الناس عبر في إحداهما بعبارة ﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ وعبر في الثانية بقوله ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٣٥

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٠٨

قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فدلت العبارتان على المستوى الخلقي الذي يتمتع به الأقلية بالنسبة إلى الأكثرية، وأعربتا عن السبب في الوقت نفسه وهو انتفاء العقل وغيابه عند الأكثرية وحضور القلب التقي عند الأقلية، تلك التي طهر الله قلبها من كل قبيح ورشحها للتقوى فصارت مخلصة[1].

وهكذا ينتج أن غياب العقل بسبب تعطيله كما رأينا حين تحدثنا عن «الران»[2]، أحد أهم الأسباب المؤدية إلى فساد السلوك، وانتشار الأخلاق السيئة، ولذلك فسر القرطبي قوله تعالى ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بقوله: «أي أن الذين ينادونك ـ من وراء الحجرات ـ من جملة قوم الغالب عليهم الجهل» واستدل على جهلهم بقول رسول الله ﷺ وقد سئل عن هؤلاء القوم «هم جفاة بني تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»[3].

قال قطب رحمه الله «وصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون، وكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي ﷺ ـ وحرمة رسول الله القائد والمربي، وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم، وحبب إليهم التوبة والإنابة ورغبهم في المغفرة والرحمة، وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع وتجاوزوا به شخص رسول الله ـ ﷺ ـ إلى كل أستاذ وعالم، لا يزعجونه حتى يخرج إليهم، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم، يحكى عن عبيد العالم الزاهد الراوية الثقة ـ أنه قال: «ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه»[4] وذهب الألوسي إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ والمراد أنهم لا يجرون على مقتضى العقل من مراعاة الأدب لا سيما مع أجلِّ خلق الله تعالى وأعظمهم عنده سبحانه ـ ﷺ ـ وكثيرا ما ينزل وجود

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم ١٦ / ٣٠٩

(٢) أحمد رحماني التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا موضوع الران

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم ١٣ / ٣١٠

(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم ٢٦ / ٣٣٤٠

الشيء منزلة عدمه لمقتضى، والحكم على الأكثر دون الكل؛ ذلك لأن منهم من لم يقصد ترك الأدب بل نادى لأمر ما على قليل، وجوز أن يكون المراد بالقلة التي يدل عليها نفي الكثرة للعدم فإنه يكني بها عنه، وتعقبه أبو حيان بأن ذلك في صريح القلة لا في المفهوم من نفي الكثرة »[1] .

وعلى الجملة فإن القرآن الكريم قد أشار إلى «انتفاء العقل» على الأكثرية في ثلاث مجالات تعد أساسية في الحياة البشرية هي المجال العقدي، والمجال التشريعي، والمجال الأخلاقي وبذلك يتبين أن الأكثرية تتحرك في هذه الحياة بدون عقل، لأن العقول من حيث هي أدوات أساسية للإدراك السليم والتوجيه الصالح قد تعطلت بفعل الشهوات والحرص على المادة وخلوّ القلوب من الورع والتقوى.

● المطلب الثاني : انتفاء السمع على الأكثرية.

يطلق السمع في القرآن الكريم على مستويات عدة، مجازية حينا وحقيقية أخرى، وأكثر ما يطلق ليدل على عملية الانتفاع البشري بما يسمع من وحي ووعظ وإرشاد، ومن ثم استخلصنا منه شيئا وهو أنه يطلق على منهج من مناهج البحث في العلوم والمعرفة وهو المنهج النقلي، ويسمى أيضا المنهج الخبري أوالسمعي أو منهج الرواية [2] ، وهو المنهج المتبع في تحقيق ماروي عن رسول الله ﷺ من أخبار قولية أوفعلية أو إقرارية .

ولذلك يطلق في غالب الأحيان مرتبطا بآليات المناهج الأخرى كالعقل والبصر، كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الاسراء : ٣٦] وقوله : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل : ٧٨]، وقوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق : ٣٧] وقوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا**

---

(١) محمود الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن الكريم العظيم والسبع المثاني ١٣/ ٢٩٣ دار الكتب العلمية بيروت

(٢) ابجد العلوم : ٢/ ١٨٨-١٨٩

وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾
[الجاثية: ٢٣]

فالسمع في كل هذه الآيات ينصرف إلى المنهج النقلي، ويرد بالمفرد لسر عظيم هو وحدة المصدر، ولذلك يرتبط بالمنفعة الكبرى المنتظرة منه أكثر مما ينتظر من غيره من المنهجين الآخرين، ومن آليات المناهج الأخرى، فارتبط في الآية الأولى بالمسؤولية، وفي الثانية بالشكر، وفي الثالثة بالذكر، وفي الرابعة بالاستفادة، وفي الخامسة بالهداية.

ومنه يتبين أن السمع يطلق هنا ليدل على آلية أساسية في المنهج النقلي، فمن عطلها عطل منهجا لا يتم إدراك جانب من جوانب المعرفة إلا به: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠] ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦].

ومن المؤسف أن ما تكشف عنه النصوص يبين أن الأكثرية في عالم البشرية ستعطل هذا المنهج كما عطلت المنهج العقلي، وسيترتب على ذلك نتيجة خطيرة جدا وهو انتشار الوعي المزيف وذلك ما يفهم من قوله تعالى:

(أ) ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

(ب) ﴿ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾
[فصلت: ١-٥]

(ج) ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١].

فهذه الآيات الثلاثة من سورتين مكيتين وثالثة مدنية تكشف عن حقيقة أساسية في عالم البشرية، وهو أن الأكثرية عطلت أسماعها عن وظيفتها الأساسية وهي الإنصات إلى الوحي كتابا وسنة للانتفاع والاهتداء، ولا شك أن تعطيل آلة السمع يعني تعطيل منهج الرواية بالكلية، لأن المناهج إنما تتفاوت بآلياتها، إذ الغرض منها جميعا في النهاية واحد هو حصول المعرفة الحقيقية التي توصل إلى الهدى وتبعد عن الضلال، ويبدو أن انتفاء السمع على الأكثرية سببه الأساسي هو انتفاء الإيمان، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٣]، إذ المعنى فإنك يا محمد لا تملك أن تحقق لهؤلاء الاستفادة مما يسمعونه؛ لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم فتعطلت بسبب ذلك آلياتهم، فهم كالموتى أو الصم، وأنت لا تقدر إلا على إسماع المؤمنين سماع إفهام وقبول لأنهم يؤمنون بالقرآن، فهم بسبب ذلك مسلمون مخلصون بتوحيد الله [1] يملكون الاستعداد الفطري للاستفادة مما يسمعون من وعظ وإرشاد، أما هؤلاء الذين فقدوا منهج الرواية فقد عطلوا آلة الإنصات والفهم فاستحال إسماعهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]

فلكي يسمع الإنسان سماع فهم وتدبر لا بد أن يملك المنهج النقلي أولا، ونحن نطلق المنهج هنا على العملية التحصيلية بأكملها، بحيث تصبح آلة السمع التي هي الأذن ليست سوى وسيلة ضمن جهاز كامل يشمل عدة آليات مترابطة لا يمكن الاستفادة من بعضها دون البعض، لأن ذلك يتنافى مع طبيعة

---

(١) الجلالين ص ٥٤١

المنهج كما بينه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فالآذان من حيث هي آلة موجودة لكنها معزولة عن الجهاز المنهجي للعلوم النقلية، هذا الجهاز الذي من أهم آلياته الأساسية الإيمان، لأنه الرابط الأساسي الذي ينقل حرارة الفاعلية بين عناصر الجهاز كلها، فإذا انتفى الإيمان تعطل الجهاز وصارت الآليات تشتغل بمعزل عن بعضها، مما يمنع من تحقيق الفائدة الكبرى، لأن الأذن - مثلا - ستصبح قاصرة على السمع الصوتي فقط، كالأنعام تماما، تسمع ولا تعي.

ولا شك أن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٣] يوضح بجلاء هذه الحقيقة، إذ الحديث هنا ليس عن الموتى حقيقة، أو الصم حقيقة، وإنما هو عن الذين هم بمثابة من كانوا كذلك، فهو مجاز حقيقته إنك لا تسمع الذين تعطلت أجهزتهم المنهجية فصاروا كالموتى أو الصم بحيث لا جدوى من مخاطبتهم ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨].

وسنشرع الآن في تحليل الآيات الثلاث التي تكشف عن تعطيل الأكثرية للجهاز السمعي الذي عليه يقوم المنهج النقلي الذي لا عوض له عن التحصيل المعرفي في مجال الغيبيات وما يبنى عليها من تشريعات.

(أ) وأول آية عندنا كانت قد طرحت المشكلة بصيغة استفهام ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ ثم عقبت بما يتضمن الإجابة المبينة لحقيقة ما حدث بقوله تعالى ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤] والآية من سورة مكية تتحدث عن موقف الناس من العقيدة الجديدة التي يطرحها عليهم القرآن الكريم، وتبين أن الأكثرية لا يسمعون سماع تدبر وفهم؛ لأنهم عطلوا جهازهم كما تعطل جهاز الأنعام، بل هم أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام توظف جهازها في حدود الإمكانيات المتاحة لها، بحسب الفطرة، وهم ينزلون أنفسهم

بفعلهم منزلة أبشع من الأنعام، لأنهم يسمعون النداء ثم يصرون مستكبرين ليضلوا أنفسهم فيهلكونها.

والحرف «أم» في قوله ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ قيل بمعنى «بل» وجاءت للإضراب عن المعنى السابق وهو قوله : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ من أجل ترقية مستوى الذم من عبادة الهوى إلى مستوى سلب السمع والعقل، قال الزمخشري : «معناه : (بل أتحسب)، كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول؛ لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال ثم أرجح ضلالة منها» (١). وذلك لأن الأنعام «تنقاد لأربابها التي تتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسئ إليها، وتطلب من ينفعها وتجتنب ما يضرها لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع» (٢).

ويبدو لي أن أسلوب الاستفهام هنا هدفه التنبيه إلى ثلاث مراحل يمر بها أكثرية جنس البشر، في مسألة الوعي وهي :

١ - اتخاذ الهوى إلها ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ ، وقد قدم المفعول الثاني عن الأول للعناية ، ومعناه «هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف يستطيع أن تدعوه إلى الهدى؟» (٣).

٢ - لوم الرسول - ﷺ - على معاتبة نفسه على أنهم لم يهتدوا، فأجابه القرآن بقوله تعالى : ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ ليبين له أن المسألة خاضعة للسنن النفسية وقوانينها، فما داموا قد عرضوا أنفسهم لها فالنتيجة أنهم

---

(١) الكشاف : ٣/٩٣
(٢) الكشاف : ٣/٩٤
(٣) نفسه

سيجنون ثمار ما عرَّضوا له أنفسهم من انحراف، وهذا شبيه بقوله تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ .

٣ - بيان أن المرحلة التي وصل إليها أكثرية البشر - وهي « كونهم مسلوبي الأسماع والعقول » - هي التي تسببت في اتباعهم أهواءهم، أي أن من فقد وسائل المعرفة ليس له أن يغير من خلقه ومن عقيدته شيئا، ما دامت تلك الوسائل معطلة، ولذلك قال الزمخشري : « فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر؟ قلت : كان فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا داء واحد وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالا » (١)، وقال قطب : وفي التعبير تحرز وإنصاف إذ يذكر « أكثرهم » ولا يعمم، لأن قلةً منهم كانت تجنح إلى الهدى أو تقف عند الحقيقة تتدبرها، فأما الكثرة التي تتخذ من الهوى إلها مطاعا، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول فهي كالأنعام، وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع ووقوف عند الحجة والاقتناع (٢) .

وهكذا يتجلى لنا أن الغرض من الآية هو إزالة الالتباس والظن في كون الأكثرية مسلوبة السمع .

أما ثاني آية تكشف عن تعطيل السمع فهي قوله تعالى : ﴿ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت : ١-٥] .

والآية من سورة مكية لذلك تشرح قضية انسداد مسالك المعرفة بشكل مدهش وتعرضها في ترتيب عظيم في الدقة، فبينت أولا أن مصدر هذا الكتاب هو الرحمن الرحيم، ثم كشفت عن كونه مفصلا عربيا لقوم عرب أقحاح،

---

(١) نفسه

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٦٦

يفترض فيهم أن يفهموه دون أي مشكل؛ لأنه بلسانهم وبلغتهم، وأنه جاء لقوم فيهم من يعلمون: أي لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتميز[1]، ولكن الآية تبين بعد ذلك أن «الأكثرية» أعرضت عن الهدى، وتبين السبب وهو كون أكثرهم لا يسمعون، وأن أجهزة الاستقبال كلها معطلة: فالقلوب في أكنتها وأغلفتها، فعلى الآذان وقر يمنعها من السمع الحقيقي، ومن ثم فإن بين الداعية وهذه الأكثرية حجاب يمنع من الانتفاع بالخطاب.

إن الآيات هنا تبين كيف تعطلت أجهزة المنهج النقلي تماما، فصارت آلاتها لا تؤدي وظيفتها البتة، فهي على الرغم من معرفتها الدقيقة باللغة التي جاء بها الخطاب فإنها لم تستطع فهم ما يقال، والحال أن المشكلة ليست في طبيعة الخطاب، ولكن في طبيعة أجهزة الاستقبال، وما آل إليه أمرها من فساد تبينه هذه الرواية لابن كثير، إذ قال وهو يعرض قصة عتبة مع رسول الله ﷺ التي قرأ عليه فيها هذه السورة حتى بلغ: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ فقال عتبة: «حسبك حسبك ما عندك غير هذا فقال رسول الله ﷺ: لا، فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك، قال ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته، قالوا فهل أجابك، قال نعم لا والذي نصبها بينة ما فهمت شيئا مما قاله غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال، قال والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة»[2].

فانظر كيف تعطلت أجهزة عُتبة فلم يشفع له كونه عربيا فصيحا وبليغا في أن يفهم عن الرسول ﷺ شيئا مما يقول غير الوعيد بالصاعقة، وانظر إلى تعجب القوم من هذه الظاهرة حتى قالوا: «ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال» فيجيبهم بما يعمق في الحيرة «والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة».

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٣١٠٨

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٩٠

(م ١١ - الحقيقة الجوهرية)

والحقيقة أن عتبة ليس سوى نموذج لهذه الأكثرية التي لم تكن تسمع أو تعقل، وكانت مصابة بأمراض في قلوبها فلم تفقه شيئا، لأن الآلة من حيث هي آلة لا تنفع إلا إذا وقعت في موضعها من الجهاز الصالح للاستعمال، فلما أصيب الجهاز بعطب في العمق وهو «القلب» تعطلت بقية الآلات عن وظيفة التلقي فصاروا يقولون «ما فهمت شيئا» على الرغم من أن الكلام كان بالعربية، والحال أنه «لتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجابا ساترا وحاجزا مانعا من جبل أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي»[1].

ومن ثم ينتج أن قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني أن الاستفادة من آياته المفصلة إنما تتم وتحصل لمن لم يفقد الاستعداد للانتفاع، فهؤلاء هم القوم الذين يمكن أن يعلموا، قال ابن عاشور «يتعلق ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بقوله ﴿تَنزِيلٌ﴾ أو بقوله ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ على معنى أن فوائد تنزيله وتفصيله لقوم يعلمون دون غيرهم، فكأنه لم ينزل إلا لهم، أي فلا بدع إذا أعرض عن فهمه المعاندون فإنهم لا يعلمون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ... وقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾

[العنكبوت: ٤٩]

كما ينتج من التعبير بقوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أن الأكثرية معرضة عن السماع حتى بالآلة، أي أنهم «يقاومون أثر هذا القرآن في نفوسهم فكأنهم صم لا يسمعون» لأنهم «يتحامون أن يعرّضوا قلوبهم لتأثير هذا القرآن القاهر»[2]. وثالث الآيات التي توضح سلب الجهاز السمعي وتعطيل وظيفته هي قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ

---

(١) الزمخشري: الكشاف ٣/٤٤٢

(٢) في ظلال القرآن: ٥/٣١٠٨

عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧١]، والآية من سورة مدنية، تبين حالة خاصة ببني إسرائيل، (لكنها تفيد عموم من تعرض لنفس الحال) كما يبين السياق في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: ٧٠ - ٧١]، والآيتان معا تبينان فعل الأكثرية من اليهود، فهم يقتلون من الأنبياء «فريقا» ويكذبون «فريقا» ثم يأتي بعد ذلك الكثرة في الردة كما بينها التكرار ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا... ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ويأتي اللفظ الصريح في الدلالة على فعل الأكثرية ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾، لقد عموا عن الدين وصموا حين عبدوا العجل ثم تابوا عن عبادة العجل فتاب الله عليهم ثم عموا وصموا كرة ثانية بطلبهم المحال غير المعقول في صفات الله وهو الرؤية في الدنيا (١).

والآية بعد ذلك تكشف عن تعطيل أجهزة الاستقبال السمعية والبصرية فهم كما يقول القرطبي: عموا عن الهدى، وصموا عن سماع الحق لأنهم لم ينتفعوا بما رأوه ولا بما سمعوه، أي عمي كثير منهم وصم بعد تبين الحق لهم في القرآن والكتب السماوية قبله(٢).

ولا شك أن تكرار الحديث عن العمى والصم، يبين مدى استفحال مرض سلب الجهاز السمعي البصري في كثير من اليهود، ولكن ليس اليهود عند النظر الآن في الحياة سوى نموذج تاريخي للبشرية، وإلا فإن الأكثرية من البشرية كلها يصدق عليها هذا الوصف، بحيث نرى اليوم على مستوى جميع الدول الغربية باعتبارها قدوة في التقدم موقفا سلبيا جدا يتمثل في اللائكية التي ليست

---

(١) الكشاف: ١/٦٣٤

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٦/٢٤٨

إلا تعبيرا حديثا عن «الصم» عن الحق الذي أتت به الكتب السماوية وجاء القرآن مهيمنا عليها ومصدقا بما فيها ومصححا لما حرف منها.

إن بني إسرائيل حقا نموذج تاريخي واضح لتعطيل المنهج النقلي، وسجلهم «مع أنبيائهم حافل بالتكذيب والإعراض، حافل بالقتل والاعتداء، حافل بتحكيم الشهوات والأهواء، ولعله من أجل ذلك قص الله تاريخ بني اسرائيل على الأمة المسلمة في تفصيل وتطويل، لعلها تتقي أن تكون كبني إسرائيل، ولعلها تحذر مزالق الطريق أو لعل الواعين منها الموصولين بالله يدركون هذه المزالق أو يتأسون بأنبياء بني إسرائيل حين يصادفون ما صادفوا، وأجيال من ذراري المسلمين تنتهي إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل حين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم فتُحَكِّم الهوى وترفض الهدى وتكذب فريقا من الدعاة إلى الحق وتقتل فريقا كما صنع بغاة بني إسرائيل في تاريخهم الطويل، لقد صنع بنو إسرائيل تلك الآثام كلها، وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ طمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئا، وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئا»[1].

وعلى الجملة فقد عطلت الأكثرية أجهزتها السمعية فتعطل بذلك منهج التلقي عن الله ورسله، وهو المنهج الوحيد للتحصيل المعرفي في ما فوق مستوى الإدراك الحسي الذي يتكفل به المنهج التجريبي، ولذلك جاءت الآيات لتبين أن الأكثرية قد عطلت هذا المنهج بصيغ ثلاث هي على الترتيب:

١ - ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

٢ - ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾

٣ - ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾

فكشفت الصيغة الأولى عن تعطيل السمع وحده، وبينت الثانية أن

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٢٤٨

أكثرهم عطلوا السمع مرتبطا بالعقل، وأبرزت الثالثة صورة سلب البصر والسمع لكثير من الناس .

وهكذا يتبين أن السمع كان هو العامل المشترك بين الآيات الثلاث، وما ذلك إلا لأهميته الكبرى في التحصيل المعرفي الغيبي الذي لا يملك الإنسان منهجا للوصول إليه غير المنهج النقلي، فمن عطله جهل بالضرورة هذا المجال المعرفي الضروري للحياة الدنيا والآخرة، ولذلك نبه الله تعالى عليه بقوله : ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه ١٢٣–١٢٧]، إذ أن تحديد مصدر الهدى هنا ﴿ **إِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى** ﴾ يدل دلالة قطعية على عدم إمكان الاستفادة من مصدر آخر، فليس له سوى المنهج النقلي الذي يأتينا رواية عن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وكل إعراض عن ذكر الله يؤدي حتما إلى الجهل بالغيبيات والتجاهل للتشريعات ويتولد عن ذلك وعي مزيف، فيترتب عنه شقاءان؛ شقاء روحي، وشقاء تنظيمي اجتماعي وخلقي هو المعبر عنه بقوله تعالى : ﴿ **مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾، هذا فضلا عن الخسران المبين يوم القيامة .

● المطلب الثالث : تعطيل آلة البصر : هل انتفاء البصر يصدق علي الأكثرية ؟

قلنا في المباحث السابقة إن البصر يوظف في القرآن توظيفا حقيقيا أحيانا ومجازيا أخرى، وحين يوظف توظيفا مجازيا فإنه يؤوَّل بالمنهج الحسي، تماما كما يؤوَّل السمع بالمنهج النقلي والعقل والفؤاد بالمنهج العقلي .

وإذا كان الإنسان ميالا إلى المادة بسبب استجابتها لشهواته أكثر وأسرع من

أي شيء آخر، فإن المنهج الحسي هو الذي سيحتل أوسع مجال في نشاط الإنسان الفكري، وما ينجر عنه من أنشطة عملية أخرى .

ومعنى هذا أن «انتفاء البصرّ سوف لن يأخذ حجما كبيرا في الذكر الحكيم، بمعنى أننا سوف لن نجد من الآيات القرآنية ما يشير إلى ذلك بالصورة التي وجدناها صريحة في مجالي المنهجين الآخرين ؛ العقلي والنقلي» .

إن الآية الوحيدة التي تشير إلى الأكثرية في هذا المجال هي قول الله تعالى: ﴿ **وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٧١]، وهي كما سبق الحديث تجمع بين انتفاء السمع والبصر معا، أما الآية التي تفيد انتفاء البصر على الأكثرية خاصة فلم نجدها أبدا .

فما السبب في ذلك ؟

الآية التي تجيب بصريح اللفظ عن ذلك هي قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٣٦] فالذي يفسد في المنهج ليس هو الآلة إنما هو روح المنهج، وهو فساد القلوب التي في الصدور، فحين تخلوا من ردود الأفعال الصحيحة تفقد الاستجابات الصحيحة، فتصير المناهج بسبب ذلك فاقدة لفعالياتها، إذ ليست الحواس إلا قنوات لتمرير أوامر القلب، فإذا فسد تعطلت هي عن دورها الحقيقي الشامل، واكتفت بالدور الثانوي الذي هو عملية النظر، وهذا ما بينه قول الله تعالى : ﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٩٨] .

إن قوله تعالى ﴿ **لا تَعْمَى الأَبْصَارُ** ﴾ وقوله ﴿ **يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ يبين أن المنهج الحسي لا يُفتقد عند الأكثرية من حيث هو منهج يملك كامل الاستعداد للتعامل مع المادة، وإنما يفتقد فيه العمق الروحي بسبب عمى القلوب التي يفترض فيها أن توجه الحواس إلى ما فيه خير الإنسانية الشامل.

إن المجال المادي الذي يمكن أن يستخدم فيه المنهج الحسي لتحقيق فائدة روحية هو مجال العبرة، وهو المقصود بقول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣ – ٤٤] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

فهذه الآيات الثلاث، تعرض مظهرين حسيين مختلفين أحدهما تاريخي اجتماعي وثانيهما كوني، ولكنها تعقب بمضمون واحد هو الدعوة للاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

ولفظ الأبصار هنا يتعدى دور الحاسة البصرية إلى المنهج الشامل الذي يحتوي إلى جانب استيعاب معطيات المنهج الحسي التجريبي الصرف المنهج الحسي الاعتباري.

ولا شك أن هذا يمثل عمق الفرق بين المنهجين، فحين يكتفي الباحث بنتائج المخبر يكون في حدود المعرفة المادية وحدها، وهذا مهم، وهو الذي يهيمن على ساحة التفكير البشري، ولذلك لم نجد من الآيات ما ينفي البصر على الأكثرية، أما حينما يتجاوز نتائج المعرفة المادية إلى الاعتبار الذي به تتحقق

المعرفة الروحية في إطار المنهج الحسي، فإن المنهج عندئذ سيصير أنفع وأوكد، وهو الذي لا يملكه إلا «أولوا الأبصار» وهو الذي نسميه هنا «المنهج الحسي الاعتباري»، وهو منهج الأقلية؛ لأنه محصور في المؤمنين المخلصين وهم قلة كما بينا في موضوع الأقلية على مستوى العقيدة.

وقول الله تعالى: ﴿ **هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقوله: ﴿ **هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] يبين أن الحجج المادية تحقق هدفها متى حصل اليقين، والإيمان، ففي الآية الأولى تكون الحجج بصائر لقوم يوقنون، وفي الثانية تكون بصائر لقوم يؤمنون، أما من فقد هذه الطاقة الروحية فلا يستفيد منها إلا ماديا تبعا لطبيعة المنهج ومستواه.

بل إن القرآن يبين بشكل أوضح أن فقدان حاسة البصر من حيث هي آلة في المنهج لا يكون له تأثير كبير على الاستيعاب متى كان المنهج برمته سليما، لوجود آلات تعويضية للدور، وهي آلة التخييل عن طريق السمع، وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ **أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ** ﴾ [يونس: ٤٣]، بمعنى أنهم لو كانوا يبصرون بقلوبهم لأمكن هدايتهم على الرغم من عمي حاسة النظر الناقلة للصور إلى العقل والقلب حيث يتم الإدراك ويحصل الاعتبار، وقد سبق بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦] أما إذا كان العطب في صلب الجهاز وهو القلب فإن المنهج سيكتفي بالدور الثانوي وهو إدراك الظواهر بمعزل عن البواطن، وقد سبق بيانه في تحليل قوله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧].

والسر يكمن في ضرورة تكامل المنهج، إذ لا يختلف فيه عطب الأذن عن عطب العين، فهما عنصران مكملان في منهجي العقل والحس، يؤثر غيابهما تأثيرا ثانويا، ولذلك جمعا معا في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ**

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣] ، فهناك استماع ونظر لكن بدون وعي واستيعاب لمضمون المسموع والمنظور، فصار وجود الآلة كلا وجود، ما لم تنظبط مع المنهج بأكمله فيكون منهجا نقليا يتضافر فيه السمع والإيمان لحدوث الوعي، أو منهجا حسيا اعتباريا يتضافر فيه البصر والتجربة مع اليقين في الله.

يقول الزمخشري: «ومنهم من يستمعون إليك» معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون، ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صمم عدم عقولهم؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر، وأتحسب أنك تقدر على هداية العمي، ولو انضم إلى العمى وهو فقْد البصر فقْد البصيرة، لأن الأعمى الذي في قلبه بصيرة قد يحس ويتظنن، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، وقوله (أفأنت) دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى مسلوبي العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل إلا هو وحده»[١].

إن كل ذلك يعني أن الاتصال بين أجزاء المنهج لا بد أن يكون اتصالا سليما، وسلامته تتم عن طريق الإيمان، فالإيمان هو الذي يضيء للعقل منطقة الرؤية ليرى، وهو الذي يضيء للبصر موضوع الرؤية والنظر، وهو الذي يكشف للسمع عن حقيقة ما يسمع، فإذا فقد المرء طاقة الإيمان تعطلت المناهج، وفقدت الآلات القدرة على الاستيعاب والإدراك المؤدي إلى المنفعة، يقول قطب في تفسير الآية السابقة من سورة يونس «وهم يستمعون إليه بآذانهم وقلوبهم مغلقة،

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٣٩

وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة، فلا يئوبون من السمع والنظر بشيء، ولا يهتدون إلى الطريق ... إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا، وينظرون ولا يميزون ما نظروا، إن هؤلاء لكثير في كل زمان ومكان، والرسول ﷺ لا يملك شيئا، لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم، فكأنها معطلة لا تؤدي حقيقة وظيفتها، والرسول ﷺ لا يملك أن يُسمِع الصم ولا أن يُبصِر العمي، فذلك من شأن الله وحده عزوجل، والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول ليهتدوا بها فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التي لا تتخلف ولا تحابي، ولقوا جزاءهم عدلا [1].

● **وخلاصة القول :**

إن الأكثرية على المستوى المعرفي قد انتفى عليها العلم الحقيقي فانتفى الوعي في المجالات المختلفة العقدية والاجتماعية والخلقية فسيطر عليها الجهل حينا والوعي المزيف أخرى، بسبب انسداد مسالك الفهم وتعطل المناهج الأساسية الثلاثة العقلي والحسي منها والنقلي بصورة خاصة.

لقد تبين لنا أن المنهج الحسي لم يتعطل بنفس الصورة التي تعطل بها المنهجان الآخران العقلي والنقلي، والسبب في ذلك هو طبيعة الإنسان الميالة للحس بصورة قوية، مما كشف عن منهج حسي متميز يقوم على العبرة في مستواها الكوني والاجتماعي أسميناه المنهج الحسي الاعتباري، لأن المنهج في صورته هذه الأخيرة يمكِّن البشرية من الاهتداء للحق، ولكن أكثر الناس - مع الأسف - لا يمارسون أنشطتهم الفكرية وفق هذا المنهج إلا قليلا منهم.

وقد ترتب على كل ذلك جهل كبير بالمعرفة الغيبية مما أدى إلى أن الأكثرية فاقدة للوعي بالخطر الذي يهددها، فهي كافرة بحيث لا ينفع معها حتى البراهين والحجج الحسية، كما تبين الآية : ﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ**

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٧٩٥

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

والذين لهم مسك من معرفة كان أكثرهم غافلين كما تبين الآية: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢] فهم غافلون عن الآيات التاريخية كحدث فرعون، وعاد وثمود، وغافلون عن الآيات الكونية، وغافلون عن آيات الوحي قرآنا وسنة لأنهم لا يوجهون إليها قلوبهم وعقولهم، ولا يتدبرونها في الآفاق وفي أنفسهم [١].

وقد ترتب عن الجهل والغفلة انتماء الأكثرية لأهل الظلمات حيث يغيب الوعي بالكون والحياة بطريقة صحيحة ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، ويحل محله الوعي المزيف الذي يقوم بوظيفة التضليل والإيهام، وأنى يكون له النور وقد اتخذ الوحي مهجورا، فهو قد يسمع الآيات القرآنية ثم يصر مستكبرا كأنه لم يسمعها، ويرى الحقائق المادية فيتجاهلها: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١].

* * *

(١) في ظلال القرآن: ١١/ ١٨١٨